قصة

٢ - الطفولة المعذبة

كان محسن يبدو أكبر من سنه التى لم تجاوز العاشرة بعد . . . ويشهد بذلك هذه اللامح الحزينة المفكرة التى يطالعك بها وجهه ، وهذه النظرة النائمة الهائمة التى تتمثل فى عينيه الواسعتين . . . وكان أسمر اللون إلا أن هذه السمرة مشربة باصفرار قليل يبدو واضحاً — على الأخص — فى وجهه الذابل . . . وكان دقيق التقاطيع ، نحيل الجسم ، ضئيل الجرم . . . ولعل هذا راجع للمعاملة القاسية التى يهضه بها والده ، والتى لم يقتصر أثرها على صحته ونموه ، وإنما تعداه إلى ماهو أخطر . . . إلى نفسية الطفل . . . فقد عوده والده على الطاعة العمياء ، وعلى ألا يسأله فى أمر أو يناقشه فى شىء . . . فكلمة صغيرة يحتج بها المسكين ، أو يحاول الدفاع بها عن ذنب يتهمه باقترافه أو خطأ يلصقه به ، كافية لأن تثير ثائرة الرجل على هذا العقوق الموهوم فيضربه ويقسو فى هذا الضرب . . . وصار محسن يمقت البيت ، ويمقت على الأخص تلك الساعة الثقيلة التى يعود بها والده من عمله . . . فيحاول دائماً أن يتوارى عن ناظره فى إحدى الحجر ، فإن مجرد رؤية وجهه الصارم ، ونظرته كافية لأن تنكأ جراحه ، وتبعث فى ذكرياته الصور البائسة التى تعذبه بين حين وحين كلما خلى إلى نفسه — وما أكثر ما يخلو إليها — فيخشى فى قرارته أن تتكرر هذه الصور — فيسرى الاضطراب فى كيانه ، ويعكر الخوف مزاجه . . . وقد تطور هذا الخوف إلى حالة عصبية شاذة فصار يهيج لأتفه الأسباب ، وتضطرب أعصابه حينما يعهد إليه بمهمة . . . فضعفت ثقته بنفسه ، ولازمه الاعتقاد بأنه لا يمكن أن يكون له رأى يعتد به ، أو أنه يستطيع أن يفعل شيئاً له قيمة . . . وجعل يتهرب من المسئولية لخوفه الشديد من الفشل . . . فهو لا يجرؤ على أن يقف أمام الطلاب يوم الخميس ليردد ما حفظه من محفوظات كما يفعل غيره من اخوانه الأطفال . . . وهو لا يستطيع أن يركز تفكيره ، ويجيب إجابة سريعة على أسئلة المدرس . وإنما تضطرب أفكاره فى رأسه وتتعثر الكلمات فى فمه . . . وهو لا يستطيع أن يجيب حينما يمثل أمام شخص غريب بل يسقط فى يديه ويعتريه الخجل ، فيحمر وجهه ، ويسيل العرق على جبينه ، ويشعر بالحرج الشديد ، ولا يحير جواباً ... فيتهم بالغباء والبلادة حتى أيقن فى قرارة نفسه أنه بليد حقاً وأنه أقل من غيره من الأطفال ذكاء ونباهة .. وكان يحدث نفسه فى هذا كثيراً ويقول : « كيف أستطيع أن أكون ذكياً كغيرى ؟ ... ماذا أفعل ؟ ... » فلا يجد حلا يرضيه ويخلصه من هذه الحيرة ... وكانت السخريات الحادة التى يلذعه بها المدرسون أو الطلاب ، وتعييره بهذا النقص يثير قلقه ويضاعف همومه ، ولكنه كان يكبت ذلك بين جنبيه ويتحمل فى سبيل هذا الكبت الأمرين ... فيلجأ إلى العزلة أحياناً ، وينغمر فى بحر التفكير ، ويساعده خياله الواسع ويزيد فى متاعبه ، ويجسم له مشاكله حتى تضغط عليه الأفكار ، ويحس بالضيق يكاد يكتم أنفاسه فلا يجد علاجاً ومتنفسا إلا أن ينخرط فى بكاء مرير ..

* * *

استيقظ محسن صباح السبت — أيقظته أمه — قبل أن تشرق الشمس ... وتوضأ وصلى كالعادة ، ثم أخذ «الفوطة» ليشترى بها خبز الافطار ، ثم ساق أمامه الماعزة ليسلمها إلى الراعى ويدعها فى حراسته طول النهار ... وكان محسن يؤدى هذه المهمة برضى واستعداد . فإنه يمضى فى أثنائها — على الأقل بلحظات بسيطة من الحرية تخلصه من جو البيت الخانق البغيض ... وتوجه بعد ذلك إلى الخباز ولكن الزحام — فى هذا اليوم على الأخص — كان شديدا لسبب لا يعرفه ... وكان أشد مايضايقه هو أن يقف الوقت الطويل فى سبيل ما عهد إليه بشرائه من أرغفة ... وكان لا يستطيع أن يزاحم الناس كغيره من الكبار لصغر سنه ، وكان أيضاً لا يستطيع أن يصيح — كما يصيح — غيره لينبه الخباز إلى وجوده ... وهبه فعل ذلك ، فإن صوته الدقيق الخافت لا يمكن أن يصل إلى مسامع الخباز بين هذه الأصوات العالية ... فكان مضطراً والحال هذه أن يقف

صامتاً وينتظر حتى تخف الزحمة وينصرف الناس ، فيلاحظه الخباز ويمن عليه بما يريده من خبز ... وحينما رجع محسن إلى البيت كانت الشمس قد ارتفعت فى الفضاء ، وغمرت الكائنات بأنوارها ... وأحسّ محسن أنه قد قضى وقتاً طويلا عند الخباز ... وأنه تأخر ... وأدرك أن عاصفة تنتظره فى البيت ... ولم يشأ أن يتأخر أكثر من هذا التأخير ، فحثّ السير وكأنه يسعى إلى حتفه ... ودخل البيت والعرق يسيل على وجهه بالرغم من برودة الجو ... ولم يخب ظنه فقد وجد والده ينتظر أمام المائدة وقد نفد صبره ، وبدت على وجهه أمارات الغضب الشديد ، وتوقدت عيناه الواسعتان ، وخيل إلى محسن أن الشر يكاد يتطاير منهما ، فتملكه الذعر ، وأسرعت دقات قلبه ، فتقدم مترددا حذراً ، ولم يكد ينتبه أبوه إلى وجوده حتى حدجه بنظرة شزرة مزلزلة ، وبادره بلهجة مدوية يشع فيها الغضب ...

— يا أحمق ... أين كنت منذ الصباح ! ...

— كنت عند الخباز ... لقد كان الزحام شديداً

(قالها بصوت مرتعش وَجِل خافت) ...

— كنت عند الخباز ! ! هه ... (وهز رأسه) ... ساعة كاملة عند الخباز ؟ ! ! وكذاب أيضاً ... أصدقنى أين ذهبت ؟ وإلا هشمت رأسك ...

فأراد محسن أن يؤكد لوالده أنه كان حقاً عند الخباز ، وأن الزحام كان شديداً جداً ، وأن الذنب ذنب الخباز الذى أخره وليس ذنبه هو ... ولكن الخوف عقد لسانه فلم يحر جواباً ، وطأطأ رأسه وبدا كالمذنب حقاً ... والتفت أبوه إلى أمه وكانت جالسة حينئذ ترقب دون أن تنبس ببنت شفة ، فإنها تعرف جيداً أن كلمة بسيطة تخرج من فيها قد تثير مشكلة وإزعاجاً للجميع لا داعى لهما فى هذا الصباح الباكر ... وقال لها ...

— أرأيت ؟ ! إنه لا يريد أن يصدقنى الجواب فيقول لى أين ذهب . إنه لا يريد أن يقول لى مثلا أنه قضى الوقت باللعب مع رفقاء السوء ... يظهر أن وسيلة الضرب لا تنفع مع هذا الولد العاق البليد ...

ولم تستطع الأم فى هذه المرة السكوت ... فأجابته بصوتها الخافت الحذر وهى تدارى غضبه والاصطدام معه ...

ربما كان كلامه صحيحاً ... فقد سمعت بأن الخباز الثانى فى هذا الحى قد قفل دكانه وانتقل إلى مكان آخر ... فقد يكون هذا سبب الازدحام ... ولكنى لا أعتقد أنه قضى الوقت فى اللعب ... وأين من يستطيع أن يشاركه فى ذلك فى هذه الساعة المبكرة ؟ . .

وكأنها بذلك قد صبت الماء على الزيت المشتعل ... فبالرغم من أن كلامها كان معقولا إلا أن هذا الرد قد أثار حنقه وأشعل غضبه ، فإنه لا يحب أن يناقشه أحد أو يقنعه بأنه مخطىء ... فإنه لا صبر له على هذا ... فالتفت إليها بكليته هذه المرة وصاح بها ...

— أنت التى تفسدين علينا هذا الطفل بتدليله وتبرير أخطائه ... فلولاك لما بقى إلى هذه الساعة ...

وما ذنبه هو إذاً — ...

— صه ... أصمتى يا حمقاء ... إنك تريدين أن تدافعى عن أخطائه ... ولكنى سأعرف كيف أعاقبه وكيف أعلمه الأدب ... سترين ...

وساد الجو صمت رهيب لحظة من الزمان لم يقطعه إلا صوته الجهورى وهو يصيح ...

— يا منّور ... هاتى الشاى ... (ومنور تصغير وتحقير فى نفس الوقت لاسم منيرة — ابنته — إن كنت لا تعلم) ،

ودخلت (منور) الحجرة وهى تحمل فى يدها إبريق الشاى تكاد تتعثر فى مشيتها من فرط السرعة والاضطراب — وهى فتاة فى الثالثة عشرة من العمر — ووضعت الأبريق أمام والدها بيدين مرتعشتين وخرجت ... ... وراح (الديكتاتور) يلتهم الافطار التهاماً كأنه لم يذق الطعام منذ أيام ... وفرغ من الأكل فى لحظات وخرج من المنزل ... فتنفست الأم الصعداء ، وشعر الابن كأن كابوساً قد زال عن صدره ... وبادرت الأم ابنها ...

— هيا ... هيا أفطر سريعاً ... فقد تأخرت فى الذهاب عن المدرسة ... وابتلع المسكين إفطاره ابتلاعاً دون أن يتلذذ به أو يحس له طعماً ! وتناول كراساته وخرج مسرعاً من البيت ...

* * *

ما كاد محسن يصل المدرسة حتى وصل إلى سمعه صليل الجرس ... ولم يكد يدلف إلى دهليز المدرسة حتى فوجىء بوالده وهو يهم بالخروج منها ... فسمر محسن فى مكانه واتسعت حدقتاه من هول المفاجأة ، وامتلأ قلبه بالرعب ولكن والده — لدهشته — لم يعمل له شيئاً ، واكتفى بأن حدجه بنظرة هائلة ذات معنى ، ومضى إلى سبيله ...

وانتبه محسن أخيراً إلى نفسه فعاد إليه تفكيره ، وأسرع إلى فناء المدرسة ، وكان الطلاب قد اصطفوا بترتيب ونظام لإلقاء نشيد الصباح كالمعتاد ، فأسرع ووقف فى مكانه مع إخوانه الأطفال ، ولم يكد مدير المدرسة يظهر فى وسط الحوش وهو يحمل فى يمناه (خيزرانته) الطويلة حتى سكنت الأصوات ، وانقطعت الضوضاء ، وانتظمت الصفوف ، وهدأت الحركة ، واتجهت إليه كل الأنظار ورفع المدير عصاه مشيراً إلى الطلبة بأن يستعدوا . ثم تكلم بصوته القوى الواضح النبرات ...

— يا الله مع بعض ... نشيد يا بلادى يا بلادى ... واحد ... اثنين ... ثلاثة ...

وارتفعت أصوات الطلاب جميعاً تنشد هذا النشيد بحماس بالغ ، وبصوت منسجم . والمدير واقف فى الفناء يهز رأسه بين حين وحين استحساناً وقد بدأ على وجهه الرضا ، وبان فى عينيه الاعتزاز بأن هذا الحماس الرائع الذى يسرى فى كيان طلابه إنما هو من فضله وثمرة جهوده . وأحس بالغبطة وهو ينصت إلى هذه الأصوات الملعلعة المدوية ... علها تصل إلى مسامع المارة فى الشارع فتطربهم وتغريهم بأن ينسبوا أولادهم إلى مدرسته ، ويدعوهم تحت رعاية هذا المدير القدير ... ولم ينتبه وهو منغمر فى فيض هذه المشاعر اللذيذة إلا حينما انتهى الطلاب من إلقاء النشيد وساد الساحة صمت شامل ... وهم بأن يصرف الطلاب إلى فصولهم ولكن خاطراً مرّ بذهنه فجأة فتوقف وصاح بأعلى صوته :

— محسن عبد الكريم ؟..

وتهامس الأطفال الذين يحيطون بمحسن فيما بينهم ، وقال له بعضهم :

— اذهب إن المدير يريدك !!..

ولم يدر كيف استطاعت أقدامه أن تحمله إلى وسط الفناء عند المدير ، وشعر بأن العيون كلها منصبة عليه ، فخفض رأسه خجلا وراح ينظر إلى الأرض ، وضايقه ذلك أشد المضايقة ، وود لو أنه تلاشى أو ذاب فى تلك اللحظة ليتخلص من هذه النظرات المركزة عليه ... وتحدث المدير أخيراً :

« أيها الطلاب . لقد طالما أمرتكم بطاعة الوالدين ، وبالامتثال لأوامرهما ... ولطالما حذرتكم مغبة العقوق والعصيان ، فإن الله قد أعد جهنم للعاقين والعاصين فيضلهم فيها وبئس المصير ... ولكن يظهر أن هذه النصائح التى نهتكم إليها لاتعجب هذا الولد الشقى — وأشار إلى محسن — ولاتنال منه أذناً صاغية ... فإنه لايطيع والده الذى يتجشم المتاعب فى سبيل تربيته والانفاق على مأكله وملبسه وتعليمه ... فقد أخبرنى قبل مدة قليلة أنه يخرج من البيت دون أن يستشيره ، ويلعب فى الشارع مع أولاد السوء ... ويبطىء كلما بعثه فى مهمة ... لقد أساء هذا الولد العاق — الذى لايستحق منا إلا الاحتقار — إلىّ كما أساء إلى مدرسته قبل أن يسيء إلى نفسه ... فأنا أريد منكم جميعاً أن تتمسكوا بأهداب الأخلاق الفاضلة ، والصفات الجميلة ، وألا تعصوا أمراً أوتهملوا واجباً ، وإلا فالعقاب الصارم... كما سأعاقب الآن هذا الولد البليد العاق عله يرتدع » ... وغير لهجته فجأة وهو يصيح : « ياولد ... الفلقة ... هات الفلقة حالا !!.. » وفى هذه اللحظة شق طالبان الصفوف ، واتجها بسرعة عجيبة إلى حجرة نائية فى الطرف الآخر من المدرسة ، وعادا فى لمح البصر وبين أيديهما « الفلقة » وأمرهما المدير صائحا :

— ضعا رجلى هذا الشقى فى « الفلقة » ..

فأجلسه الطالبان بغضاضة على الأرض ، وأدخلا رجليه فى الفلقة قسراً ، وأمسك كل واحد منهما بأحد طرفيها ، ثم أخذا يديرانها على رجليه حتى أحس بحبل الفلقة يضغط عليهما ضغطاً قاسياً ويكاد يحزهما حزاً ... وهنا أهوى المدير على رجلى هذا البائس بعصاه الخيزران فشعر الصغير بوخزهما المؤلم يحرق رجليه ، ويكاد يدميهما . فراح يبكى بكاء خافتاً متقطعاً وهو يتلوى على الأرض ذات اليمين وذات الشمال والعصاة لاتكف ولا ترحم حتى مرت لحظة حسبها محسن من أطول الفترات ... وحينما شعر المدير بأنه قد أدى المهمة كما يجب ، أمر الطالبين بأن يقوداه إلى حجرة العقاب المظلمة ، فإن الدرس محرم عليه فى هذا اليوم ... واتجه إليها محسن وهو يجرر رجليه جراً ، والدموع تنحدر على خديه مدراراً وقبع فى ركن من أركانها ، وراح يبكى فى صمت ولوعة ، وينشج نشيجا متقطعاً تكاد تتقطع له نياط قلبه حتى احمرت عيناه وذبلتا ، وشعر بأنه لايستطيع أن يبكى أكثر مما بكى ، فراح ينزل اللعنات على هذا الأب الغشوم ... فهو السبب فى كل هذه المصائب التى حلت على رأسه ... ياالله ما أشد ظلمه !!. ألم يكفه أن ضربه بالأمس أمام الأطفال الآخرين فجرح كبرياءه ، وبدا فى عيون غيره من الأطفال

مهينا ذليلا ؟ . وأنه حرمه من اللعب فى يوم عطلته الوحيد ؟. ألا يقدر كم يسببه له هـذا الاحتقار الذى يرميه به المدير والمدرسون والطلاب جميعاً من ألم وعذاب ؟!. وشعر بأنه مظلوم مهضوم الحق . وأن القهر يكاد يخنق أنفاسه ، وبأنه فى حاجة إلى من يواسيه ، ويخفف عنه كربه العظيم ... وتمنى لو كان الآن (عزيز) صديقه الحبيب جالساً بجانبه ليبثه شكواه ، ويفضى إليه بشجونه علّه يستطيع أن يخفف عن صدره عبء هذا الهم الجاثم . وراح يتمتم لنفسه فى وحدته « أليس من خلاص يارب من هذه الحال ؟.. إلى متى وأنا فى هذا العذاب ؟.. إلى متى وأنا صابر على الظلم ؟. آه ... ليتنى كنت كبير السن ، إذن لعرفت كيف أنتقم لنفسى وآخذ حقى ... ولكنى ضعيف ... ضعيف ... لاحول لى ولاقوة ... ليس من حل إذن إلا أن أفر من هذا الأب الغاشم ... نعم ... سأذهب بعيداً عنه ... ولن أرى وجهه الكريه مرة أخرى . لن أعود إلى المنزل بعد هذا اليوم مهما كانت النتائج . فأنا لا أستطيع أن أقاسى أكثر مما قاسيت ، وأن أتحمل أكثر مما تحملت » وفيما هو يدير هذه المعانى فى ذهنه ويعيد ، لمع الجرس فخرج الطلاب من فصولهم ، وتجمهر المتطفلون منهم — وهم كثر — حول النافذة الصغيرة الوحيدة لحجرة العقاب ... وراحوا ينظرون إلى محسن بعيونهم الناقدة ، ووجدوا فى حالته التعسة مادة خصبة للتعليق والضحك غير آبهين لما هو فيه من مهانة وعذاب ، وراح ينظر بعضهم إلى بعض وهم يشيرون إليه بين وقت وآخر يتهامسون حينا وترتفع أصواتهم حينا آخر :

— أتعتقد أنه سوف يقضى طول اليوم فى هذه الحجرة المظلمة ؟...

— هذا مؤكد !!.

— ياله من غبى ... عاق ... حسناً فعلوا به ...

— أنظر !! إن عينيه محمرتين من البكاء ..

— لا شك أنه يتعب أباه كثيراً ... وإلا لما عرض لهذا العقاب ...

— سيظهر له (خروف مسلسل) حينما ينتشر الظلام .

— لماذا ؟ ... أهذه الحجرة (مسكونة) ؟ ! ! . .

— طبعاً يا أخى ... ألم تسمع بذلك ؟ ...

— مسكين ... يا لسوء المصير ...

وأثارت هذه التعليقات السخيفة المهينة حنقه كما ملأت قلبه فزعاً وهلعاً وضايقته هذه النظرات المتطفلة ، فأعطاهم ظهره وهو يتمنى فى سره لو أن الله خلق له — الساعة — أنياباً وأظافر لينشبها فى أجسام هؤلاء المتطفلين الذين لا يحسون بما يحسه ، ولا يدركون مبلغ بؤسه وعذابه ... ودخل فى روع بعض الطلاب أنه لا يلقى لهم بالا ، ولا يكترث لحديثهم .. وشجع صمته البعض الآخر فصاح به طالب نزق ...

— أكان الضرب مؤلماً يا محسن ؟ ...

— فجرأ هذا الكلام طالباً آخر فصاح أيضاً ...

— ألا تزال تحس بألم الضرب ؟

ورد (النزق)

— وهل تورمت أصابع رجلك ؟ ...

وهنا سمعوا صليل الجرس فتفرقوا إلى فصولهم ، وخلفوه وحده يجتر آلامه فى سجنه الرهيب ، وجوه الكئيب ...

(يتبع) على زكريا الأنصارى

الدنيا مخلوقة من الهواء

هذا ما قال به فيلسوف يونانى يدعى أناكسيمين سنة ٥٨٥ قبل الميلاد . . أى أنه قد مضى عليه للآن نحو ألفين وخمسمائة سنة تقريبا .

ويبرر هذا الفيلسوف رأيه هذا بقوله . إن الهواء إذا سخن صار نارا ، وإذا برد صار سحابا ثم مطراً ثم ثلجا ثم صخرا والهواء هو عنصر الحياة فى كل شىء . وهل يوجد فرق بين الحى والميت إلا الهواء المنتشر فى أجزاء جسم الأول ، والمعدوم من جسم الثانى .

ومن آرائه أن هذه الأرض التى نعيش عليها مستطيلة مبسوطة ، وأنه يمكن — على ذلك — لو اتجهنا سيرا إلى أى اتجاه أن نصل إلى آخرها .

« إلى آخرها ؟ » وهنا تتحطم النظريات ، وتتهشم الآراء ... أيمكن ذلك حقا ؟ أن نصل إلى آخر الدنيا . . أيمكن أن نشرف على نهايتها ؟ . .

* * *

هذه أسئلة قاتلة . . قد صارعت الفكر قديما . . وقد آن الأوان لتصارع الفكر حديثا .